

سلبية حياتنا

بقلم الدكتور جورج طعمه

اصبحت اسبابها معروفة وآلياتها واضحة : فالنزعة التهديمية ترمي الى القضاء على جميع الاشياء الغريبة عنها التي يضطر الفرد الى مقارنة ذاته بها . وهي تنشأ من شعور الفرد بانسحاقه امام المجتمع وانفراذه وتوحده . وهذا الشعور بانغلاب الفرد على امره يؤدي الى نتجتين : القلق وكبت الحياة . ان كل ما يهدد مصالح الفرد المادية والعاطفية يخلق قلقاً . وقد يتجسم التهديد في افراد معينين . وعندها يصبح هؤلاء الافراد الغاية التي تتجه النزعة التهديمية صوبها . فكأنها نوع من الدفاع يحمي الفرد القلق ذاته بها ليحميها . واما كبت الحياة فهو ناشئ عن عدم مقدرة الفرد على تحقيق امكانياته الحسية والعاطفية والفكرية وبالتالي ايقافها وتجميدها . ويزيد في هذا الكبت والتضييق ما يفرضه المجتمع المتحجر من حدود وقيود ومفاهيم جوفاء . ثم ان مقدار النزعات التهديمية في الافراد وسدتها يتناسبان مع مقدار كبت الحياة وتجميد اندفاعها . ولا يقصد بذلك كبت غرائز أو نزعات معينة على نحو ما ذهب اليه فرويد ، وانما تجميد امكانيات الفرد بكاملها . فالحياة تحمل قوى وامكانيات غنية تطلب التحقيق حتى اذا لم يتح لها ذلك تحللت وتفسخت . وهكذا فالنزعات التهديمية في الحظ الاخير إنما هي نتيجة حياة لم يعيشها الفرد ، حتى لتصبح بمثابة المنبع الذي تندفع النزعات التهديمية منه اما ضد المجتمع بكامله ، أو ضد الافراد الآخرين ، أو ضد المرء ذاته في الحالات المرضية الشديدة ١ .

٢ - سلبية الكلام - او قل طغيان الكلام : ويتميز هذا النوع من السلبية بالاحاديث الكبيرة عن العموميات والكليات والمذاهب التي لا تمت الى الواقع بصلة ولا تنطبق عليه ولا تثير ايّاً من مشاكله الاساسية . فانت تسمع مثلاً مثقفاً يتحدث ساعات طويلاً عن الدولة الحديثة او القومية والعروبة او التقدمية والرجعية او العدالة الاجتماعية ويأتيك بشئ النظريات عن حقيقتها وطبيعتها . ولكن لو عهد الى هذا الرجل بالذات ان ينظم دائرة

(١) من اجل التوسع في التحليل النفسي لهذه النزعة راجع :

Man for Himsalf. و E. Fromms : Escape from Freedom

عاش جيلنا العربي الذي ولد ونشأ بين حربين كونيتين ، غريباً عن نفسه وغريباً عن العالم ، رغم ادعائه المعرفة في الحالتين . ولكن المأساة القريبة التي حزت نفس العربي اخيراً - نكبة فلسطين بالامس - اخذت تعود به شيئاً فشيئاً الى ذاته لتضعه وجهاً لوجه امام قدره الاخير ، وما يحيط به من ظلال مدممة كئيبة ، ولتناقشه الحساب بمنطق الحياة الذي لا يرحم ، اذ تطرح عليه السؤال : من انت؟ وأين تقف في الكون والوجود؟ ولو أراد العربي ان يكون صريحاً مع نفسه ، مسؤولاً عما يقول ، مدر كماً لمأساته الكيانية - لوجب ان يكون جوابه : انا كائن سلمي .

والسلبية هذه ، ظاهرة خطيرة في مجتمعنا وحياتنا الفكرية والعاطفية تعود جذورها الى خطأ اساسي عاش مئات السنين حياة دفينه عميقة في كياننا . ونحن ندرك هذه السلبية في مجتمعنا بمجرد الاشارة اليها ، ولكننا بفعل الانحراف النفسي نحاول انكارها ، أو اعطاءها اسماء اخرى ، بغية الهرب والتمويه . وهي تفصح عن ذاتها في وجوه شتى ، سأقتصر على ذكر ثلاث منها من حيث امعانها في الخطر والشدة .

اولاً : سلبية التهديم - وهي تتخذ شكل شهوة جامحة في النفس ، تجر كل شيء الى الاسفل وتهوي به الى الحضيض . وكما تثور غريزة الافتراس عند حيوان الغابة حين يشتم رائحة فريسته ، هكذا تثور شهوة التهديم حالما تتلمس عملاً سلبياً قوياً فتنبض عليه . هنا وبنطق زائف يصبح الصواب خطأ ، والجمال قبحاً ، والابداع جموداً ، والخلق القويم خلقاً فاسداً . ومن اغرب تناقضات هذا النوع من السلبية ، شكوى مرضاها منها ، وحكمهم بفسادها ، ثم الوقوع فيها بمجرد الانتهاء من الكلام . ولكن هذه التناقضات - شأن جمع التناقضات التي تنتهي اليها « السلبية » - نتيجة طبيعية : ذلك انها بحكم تراكيبيها الذهنية القائمة على السفسطة محكوم عليها ان تنتهي الى التناقض وبالتالي الى تهديم ذاتها بذاتها .

غير ان هذه الظاهرة المرضية لم تعد سراً على علماء النفس بل

صغيرة متواضعة من دوائر الدولة ، أو أن يضع نظاماً أو قانوناً لحل مشكلة معينة في عمل جدي مسؤول ، وفي صبر ومثابرة ، دون ضوضاء ودعاية ، لظهر عجزه ولا تضح فشله .

وبوسع اي منا ان يقوم بتجربة بسيطة : اجمع خلال سنة واحدة او نصف سنة تصاريح قادة السياسة في بلادنا التي لا بد أن تطالها في اية صحيفة عربية بين يوم وآخر . وقابل في نهاية السنة بين مجموع ما وعدت به هذه التصريحات ، وبين ما تم ونفذ منها لتجد اي حصاد لديك : انه حصاد المهشيم او قبض الريح . ومن هنا السطحية التي يتصف بها مجتمعنا وقادتنا .

يقول كبير كيغاراد : الاعمال العظيمة تم وتنضج في صمت روحي عميق . بل ان هذا الصمت ذاته هو من شروط الافصاح الكلامي والانتاج العملي . والفكر المسؤول يحيط الخطة المدروسة بهالة من السكون الى ان تصبح واقعاً حياً . اما الكلام عن عمل لم يتم فاما ان يكون حكماً مسبقاً عليه بعدم التنفيذ ، او وليد عدم ثقة صاحبه بنفسه . وكمثال على ذلك خذ ظاهرة الانتاج الفني : فالفنان الملهم لا يتحدث عن عمل فني ينوي اخراجه ، قبل ان يخرج الى الواقع . لان اللوحة الغامضة او النغم العميق او القصيدة الفذة او القصة الرائعة تعيش كلها كاملة في قدس اقداس صاحبها قبل ان تولد الى الحياة . وهو لو تحدث عنها في مرحلتها هذه لكان ذلك بمثابة الحكم عليها بالموت قبل ان تولد . وما يصح في الانتاج الفني يصح في اي عمل على الاطلاق .

ومن هنا الفارق الاساسي بين السطحية والعمق : فالسطحية غايتها حب الظهور القائم على الاعجاب بالذات وهي تعكس فراغ النفس الجوفاء . وعلى عكس ذلك تماماً العمق اذ لا يقيم وزناً لهذه الظواهر الخادعة القائمة على التضليل والتهريج والتوصل الى الاعجاب السريع . تلك الظواهر كلها تنتهي الى ان تفضح ذاتها بذاتها .

٣ - سلبية الاحلام . وهي الحرب من عالم الواقع الذي يخيف الفرد ، الى عالم من الاحلام الكبيرة والآمال الواسعة يبنيه لنفسه حتى لتصبح اوهامه حقيقة يعيشها . فنحن مثلاً نتحدث عن امبراطورية عربية واسعة ، ونهمل الشروط الاساسية الدولية لتقريب اجزاء الوطن العربي الواحد . بل ما اكثر الفرص التي تتاح لنا كل يوم في هذا السبيل ، ولكننا نعامل بعضها معاملة

الاغراب للاغراب حتى ليحس العربي نفسه غريباً في بلاده . ويشع في نفوسنا ابراق آمال واسعة المدى ، ونتجاهل الواقع المحزن الذي نعيش فيه . ونتحدث احياناً ، وكأننا مخدرون ، اننا « نكتب التاريخ » ونحن لا نعيش حتى على هامش التاريخ . « ان معظمنا يرفض أن يقوم بعمل محدود منتج ، حين نجد كل فرد فينا يرغب بأن ينفخ شعوره متوهماً انه على الاقل اكتشف قارة جديدة » .

ان الصورة الاخيرة لهذا النوع من العربي الحديث ، المغلوب على امره خيلاً واوهاماً وتدفعاً بالحلمس يصور له سراً انتصارات لم يكتسبها قط ، انه مزيج من دون كيشوتي وصاحبه سانشو : الاول يريد ان يغزو الكون على حصان اعرج ، خالقاً لنفسه بطولات وهمية ، والثاني يسير وراءه على حمار هزيل ...

« هكذا يندفع جيلنا آتياً بالحلمس الشديد ، ثم لا يلبث ان ينتهي الى الخمول والتراخي وابقاء القائم على ما هو عليه . ويدعي انه جيل قوي ، وهو في الواقع جيل دعابة وعلان ، يتوقع ان يجد اعترافاً باعمال عظيمة لم يقيم بها ، او قبل ان يقوم بها . وتتصافر قوى المجتمع الجامد المتحجر على قتل رغبة العمل في الفرد وتنفيذه . اذ ان هذه القوى تقنع الفرد بمنطق بارع ان افضل طريقة للعمل هي ان لا يعمل شيئاً . ويخلد جيلنا الذي اذنته جهوده الوهمية الى السكينة والكسل التام حتى لتشبه حالته حالة الرجل الذي يقع في سبات عميق قبيل انبثاق الصباح بعد ان ارق الليل بكامله : تأتبه قبل كل شيء احلام كبيرة .. ثم شعور بالكسل ... واخيراً عذر بارع لبق يبور بقاءه في سريره ... »^(١)

وهناك السلبية السياسية في حياتنا العربية . وهذه جديرة بان يفردها بحث خاص مستقل . ولكن يكفي من قبيل التنبيه ان نقول هنا ان جميع الانواع السابقة من السلبية التي تميز الكائن العربي الجديد تتصافر لتعمل تديماً في حياتنا السياسية الداخلية والخارجية . ولذلك نخطيء من يظن ان السياسة تعيش في نطاق مستقل مجرد ، لانها في النتيجة نوع من أنواع التعبير الحي عن ماهية الانسان « الكائن » شيئاً ما . وهذه السلبية السياسية بلغت أوجها في كارثة فلسطين . اذ وجد العرب

Kierkegaard : The Present Age

(١) راجع :

انفسهم غير متفاهين ابان احتدام المعركة ، وعجزوا في الوقت ذاته عن ان يجدوا حليفاً واحداً قوياً الى جانبهم ، حين استطاعت الصهيونية الدولية تأليب قوى العالم - غربية وشرقية - الى جانبها .

وان المتتبع لاحداث ربع القرن الاخير من صراع الصهيونية الدولية المباشر مع العالم العربي ليصل حتماً الى تقرير الحقيقة التالية : خلقت الصهيونية الحوادث للعرب . وكانت السياسة العربية ابدأً ودائماً مجرد رد فعل سلبي للأحداث التي انهالت على البلاد العربية . والذي يحز في نفوسنا اليوم ان هذه الحقيقة ما ظلت قائمة ، لا سيما واننا دفعنا في فلسطين ومن كياننا الدولي ثمناً باهظاً لهذه السلبية المزدوجة : بين العرب ازاء بعضهم البعض اولاً ، وبين العالم العربي والعالم الدولي ثانياً . وهناك اخيراً السلبية الفلسفية التي تنتهي الى التشاؤم المظلم القائم على الاعتقاد بان الحياة غير جدية بان يعيشها المرء ، وبالتالي الى الفئائية الحلقية مما لا يدخل في نطاق حديثنا هنا رغم وجود هذه النزعة قوية في نفوس عدد غير قليل من ابناء الجيل العربي الجديد .

★

تلك هي بعض مظاهر السلبية في الفكر والسلوك كما نجدها في مجتمعنا العربي الناشيء وفي بعض نواحي الفكر والعاطفة والسلوك . ولست ازعم ان هذا البحث قد استوفى حقه ، بل كل ما قمت به هو مجرد اثاره اولية بسيطة لهذه المشكلة الخطيرة في حياتنا الخاصة والعامة . ولكن ثمة تحفظ ضروري :

ان الحكم على السلبية بالفساد لا يعني ابدأً ان يقبل المرء الشر والفساد لكي يكون ايجابياً . فهناك فارق أساسي جوهرى بين أنواع السلبية الهدامة التي وصفتها ، وبين سلبية المصلحين الاجتماعيين والمفكرين العظام وقادة السياسة الذين طبعوا التاريخ فعلاً بفكرهم وتضحياتهم ودمائهم . ان سلبية هؤلاء تقوم على أساس موقف ايجابي ، وترتكز الى فلسفة متمسكة شاملة ترغب البناء والافضل والاكمل . ان تطور التاريخ الحي والانسانية المتطلعة الى الاعلى يعني في المحط الاخير جهد امثال هؤلاء المصلحين في تثبيت دعائم عالم القيم وسط عالم تضيع القيم فيه . ان قادة الثورات البشرية الكبرى كالثورة الفرنسية أو الاميركية كانوا يتميزون بحس دقيق بالعدل واحترام عميق للقانون . فهؤلاء ايجابيون حتى في سلبيتهم .

الاجيائية هي اذن موقف البناء الذي يتخذه الفرد او الجماعة في تكييف حياة كل يوم ، وفي معالجة الازمات العنيفة التي ترمي بها الحياة . انها نتيجة الارادة المناضلة الواعية التي تسعى لأن تخلق من الفشل نجاحاً ، ومن الفاجعة بطولة فذة . فنيته رغم ما عاناه من آلام مرهقة عنيفة يقول : « العالم عميق وعميق شره . الا ان الفرح اعتمق من الجراح . فالالم يطلب الفناء .. ولكن الفرح يريد الابدية ... »

ولتحقيق الاجيائية لا بد من وجود شرط اولي : هو تنمية الفعالية المنتجة في الفرد ، لان الغاية الاولى من الحياة هي تحقيق جميع الامكانيات والقوى الكامنة في الفرد . فالحياة لا تكتفي بذاتها بل هي تطلب آفاقاً اوسع وابعدها منها . ولذلك فهي في افضل مظاهرها البشرية تطور ايجابي ، واثبات دائم وتوكيد مستمر . والملاحظ على المدى البعيد ان افضل وسيلة لظهور ضعف البناء الفاسد هو ان يرتفع بناء شامخ قوي الى جانبه يحكم بقوته وصلابته على ضعف البناء الاول ، لان الجمال يحكم القبح . ولو نحن رجعنا الى التراث الفلسفي والفكري المترام لوجدنا في اعلى ما وصل اليه تأكيداً مطلقاً على الاجيائية ، وضرورة الانتاج كغاية طبيعية لحياة الفرد ، وضرورة اخلاقية . هذه المقاييس هي التي تقرر قيمة الفرد والجماعة بصورة نهائية . ولذلك يجب ان لا نستغرب عندما تقاس بهذا المعيار ان نجد ان لنا قيمة سلبية اليوم في العالم الدولي .

ولكم احب اخيراً ان اذكر الحكمة الصينية القائلة : « خير للمرء ان يئير عود تقاب من ان يلعن الظلام . »

جورج طعمه

دمشق

الكتب الأدبية والمدرسية على اختلاف أنواعها

احداث المطبوعات ومجلات الأزياء لعام ١٩٥٣

مبيع وإصلاح عموم أصناف أقلام الخبر

القرطاسية بأنواعها وأدوات المكاتب

كل ذلك تجدونه دائماً في

مكتبة هاشم

بيروت
شارع سوريا

٨٣ / ٢٦